مقدمة عن الجمال والحرية

إذا كان الجمال كما يقول هيجيل نمطا معينا لتظـهير الحقيقـة فـأولى بـه أن يكون أوضح تجليات الحرية، ولا خير في الأدب إن لم يكن وسيلة للكشف عـن الجمال أو درجة ترقى بنا في معارج الحرية. وقد ظل ثالوث منظومة القيم قديما عندما اقتصر على الحق والخير والجمال. وأخذ الفلاسفة والحكماء يبحثون عـن التناغم بين أطرافه في ضوء المعطيات الحسية حينا وفى ظل فكرة الإيقاع الكوني المتصل بروح العالم حينا آخر، وانتهى الأمر حينئذ إلى حصر الجمال في تطبيـق قواعد الفن السائدة لتوليد المتعة الجمالية بالمقاييس المضبوطة.

لكن النقلة النوعية في مفهوم الجمال تمت على يد كانت عندما اعتبر الـذوق شاهدا على التوافق التام بين العالم الطبيعي والإرادة الحرة، ممـا مـهد المجـال لشيلير كي يطلق دعوته التي يعلن بها مولد العصور الحديثة في اعتبـار الجمـال أقوى تعبير عن الحرية، منذ تلك اللحظة تصدرت قيمة الحرية منظومـة الحـق والجمال وأصبحت هي المهيمنة عليها.

وإذا كانت وظيفة الأدب جمالية في الدرجة الأولى – حتى تكتسب فعاليتـها المحققة لبقية الوظائف – فإن مـن الضـروري في عالمنـا العربـي أن تقـترن بـها وظيفة التحرير، فلا سبيل إلى إبداع حقيقي يـترك الإنسـان واللغـة في مكانـهما دون تحريك نحو مزيد من تحـرر الطاقـات وإطـلاق العنـان للخيـال كـي يعيـد تشكيل العالم بصورة أجمل، حتى وهو يمعن في هجاء قبحه الماثل ويخلـق فينـا توقا فياضا إلى استشراف أفق أشد وضاءة وكمالا.

من هنا فإن النقد الأدبى يصبح فاقدا لبوصلتـه الموجهـة إن غفـل عـن بلـورة اسـتراتيجية التحـرر المبـدع، حتـى وهـو يحلـل أكـثر التقنيـات الفنيـة دقـة

وخصوصية. لأن وظيفتها الأساسية تبقى في نطاق توليد اللـذة الجماليـة الكفيلـة بتحرير وعي الإنسان بالفن والحياة في التحليل الأخير.

على أن حرية الخطاب بمستوياته الشاملة لـما هـو سياسـي وثقـافي تعـد هـي الممارسة المباشرة لأولى درجات الحرية المبدعـة. وبوسـعنا أن نتمثـل مشـروعات التحرر في الوطن العربي. وقد مضى على انطلاقها ما يربـو علـى قـرن ونصـف، منذ نشأة النزعات الليبرالية الأولى في مقاومة السلطة المطلقة للعثمانيين وولاتهم، ثم النضال الممتد ضد مشروعات الهيمنة الإمبرياليـة الغربيـة، أن نتمثلـها اليـوم وقد بلغت درجة من النضج تضعنا في صف الجيل السابع من دعاة الحرية. لكن الطابع المميز لمنظورنا اليوم أنه يعتبرها منظومة متكاملة لا ينفصل فيها السياسي عن العقائدي، ولا الشخصي الفردي عن الجماعي، فالحرية ذروة القيم المعاصرة والمقدس الإنساني الذي خلقته الثقافة وعززت به الجمال والحق والخير.

وإذا كان لنا أن نستأنس بـأهم العلامـات المـائزة في الفكـر العربـي المحـدث لتأكيد هذا المنظور لدى الأجيال الجديدة، فبوسـعنا أن نشـير إلى بحـث العـالم الكبير "قسطنطين زريق" في كتاب "فى معركة الحضـارة" حيـث نجـد تحديـدا دقيقـا لمقـاييس الحضـارة في العصـور الحديثـة يحصرهـا في ثمانيـة، ثـم يعـود فيرجعها جميعا إلى مقياسين عامين همـا الإبـداع والتحـرر، ولكنـه لا يلبـث أن يصل في نهاية تحليله الشائق إلى أن الإبداع وتخليق الجمال ليس سـوى مظـهر للتحرر الدائب الفعال قائلا:

"إذا كان جوهر التحضر هو التحرر، فمعنى تخلفنا هو أننا لم نجز ما جازته الشعوب التي سبقتنا في هذا المضمار في التحرر من الطبيعـة والوهـم، والتخلـص من الخطأ والهوى وتأثير الغير".

وإذا كان من الممكن أن نخضع بعض عمليات التحرر للقياس الكمي في أرقـام وإحصاءات، عـن التصنيـع والإنتـاج ومعـدل الدخـل، فقـد اعـترفت المنظمـات العالمية الكبرى التي تعنى بالتقدم المادي للإنسانية بأن هناك ما هو أشد حسـما

من هـذه المظـاهر في قيـاس ظـاهرة التقـدم وعلـى رأسـها روح الابتكـار والإبـداع والحس الجمالي بالوجود.

وقد اهتم بعض المفكرين العرب في تناول قضية الحرية بالانتقـال مـن المطلـق إلى النسبي، يقول عزيز الحبابي مثلا: "ليس هناك حرية، بل حريات تـتزامن جدليا لإرساء عملية التحرر. ومن ثم يصبح مـن الضـروري تـرك مفـهوم الحريـة التام المستقل، والانتقال لمفهوم التحرر الناقص القابل للنمو والتطـور التدريجـي" وكما كان الأقدمون يتحدثون في علوم الكلام عن الإيمان الذي يزيد وينقص، فإن علينا أن نتمثل اليوم مفهوم التحرر الذي يعبر عن عمليات الارتقاء من حالة إلى أخرى في ضوء استراتيجية حضارية شاملة.

ويقدم عبد الله العروي توصيفا محددا لعدة مؤشرات للتحرر من أهمها مؤشـر النمـو الاقتصـادي وسـيادة التفكـير العلمـي في المجتمـع والمشـاركة الفرديـة في السياسـة بمـا يـؤدى إلى تـداول السـلطة سـلميا، وبوسـعنا أن نضيـف إلى هـذه المؤشرات ما يتصل بحريات الفكر والإبداع بما يـؤدي إلى تعديـل منظومـة القيـم لدينا كي تكون نسبية تاريخية تتوافق مع إيقاع التقدم الحضاري للعصـر وتقبـل منجزات الإنسانية في مختلف الثقافات على أساس نقدي لا يعتبر الهوية قرينـا للثبات والجمود، معترفا بضرورة تعديل الأولويـات في أنسـاق التفكـير وأشـكال الإبداع على السواء.

وهذه الفصول التي أقدمها للقارئ مـن حصـاد تجربـتي النقديـة في مطارحـة الأعمال الشعرية التي كتبت في الفترة بين عامي ٢٠٠٢، ٢٠٠٥م أضعها تحـت محكٍ كلي بهذا العنوان الطموح "جماليات الحرية" لأنه الخيـط الجـامع الـذي أصبح يربط رؤيتي النقدية لمظاهر الإبداع المختلفة، علـى أسـاس اعتبـار الحريـة قيمة جمالية عليا لابد أن تتجلى في الإبداع الشعري بدرجات وأشكال مختلفة، فكلما تأملت مظهرا تقنيا فريدًا يفجر شعرية النصوص ويحفز تأثيرها في المتلقـي ليزيد متعته فإنني في حقيقة الأمر أدعوه إلى تقبـل غوايتـها الفنيـة كـي يتحـرر قليلا من أوهامه وعوائقه المترسبة في ثقافتـه القـارة. وإذا كـان الأدب في جملتـه

نقدا للحيّاة فإن نقد هذا الأدب — مهما تـذرع بمنـاهج ومداخـل تصطنـع العلم والحكمة وتتحفظ في إطـلاق أحكـام القيمـة — علـيه أن يسـتحضر مـا تحتاجـه الحياة من قوة دافعة لتوظيف الجمال للرقي بها في معارج الحرية التي أصبحت الهدف الاستراتيجي للإنسان المعاصر. ولست أزعـم أن هـذا الهـدف يتجلـى في كل الأعمال التي تناولتها بالدرجة ذاتها، وإن لا ففيم تتفاوت قيمتها وأهميتـها وقدرتها على تحقيق كشوفها الجمالية المتميزة. وحسبي في التأكد من صحة هذا الاتجاه ما أسرّ إليّ به أحد زملائي الكبار من علماء الحضارة بأنه قـال لطلابـه: كلما قرأتم مقاربة جديدة في هذا النقد وجدتموه يدفعكم للتحـرر الجميـل المتـع من بعض أوهامكم السابقة، وكل ما أتمناه أن لا أكون بـدوري قـد وقعـت أسـير وهم كبير وأنا أتصور أن هذه الكتابات البسيطة قد تسهم في جعل أدبنـا حياتنـا ترقى إلى الأجمل.

صلاح فضل